محاولات الاستعمار الفرنسي تجزئة سورية على أسس طائفية وأثر المستشرقين فيها

علي أكبر ضيائي*

Abstract

Western modernity has challenged religious thought in various ways. This article deals with the issue of religious thought in encountering Western modernity with particular emphasis on communal experiences between Reform Judaism in Germany and modernist Muslim thinkers in Egypt .The study reveals that there are three common characteristics shared between these two intellectual responses, i.e. (i) promoting the idea of full-fledged assimilation in Western modernity, (ii) belittlement the status quo of religious tradition and, (iii) returning back to the original convictions of the religion, acknowledging its significant and demonstrating the destructive elements of Western modernity.

مستخلص البحث

يعد الاستشراق أوسع حركة علمية شهدتها أوروبا إبان صعودها وتوسعها الحضاري اهتمامًا بدراسة العالم الإسلامي بصورة خاصّة من النواحي التاريخية والدينية والاجتماعية والإثنية. وقد تدعمت تلك الحركة بصورة خاصّة في ظل الهيمنة الاستعمارية للعديد من الدول الأوروبية على العالم الإسلامي، بل كانت من أهم المجالات التي استفادت منها تلك الدول لتوطيد نفوذها وإنفاذ سياستها في

* دكتوراه في الحضارة الإسلامية، باحث في مجال المخطوطات الإسلامية بالمعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية، وعضو جمعية المخطوطات الإسلامية بكمبريج. البريد الإلكتروني: aaziaee@hotmail.com

الدول المستعمرة. ويحاول هذا البحث أن ينظر في الكيفيات والآليات والمظاهر التي تجلّى فيها توظيف "العلم الاستشراقي" الفرنسي من أجل تحقيق فرنسا لأغراضها الاستعمارية من خلال التركيز على علاقة الاستشراق بالسياسة التي انتهجتها فرنسا لتقسيم سورية على أساس طائفي إلى دويلات مستقلة.

مقدمة: في الاستشراق مفهومًا ونشأة

يعرف أحمد حسن الزيات للاستشراق بأنه: "دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنّه في العصور الوسطى كان يقصد به دراسة العبريّة لصلتها بالدين ودراسة العربيّة لعلاقتها بالعلم"[1]، والمقصوج بالشرق هنا الشرق المسلم أو العالم الإسلامي بامتداداته الجغرافية والبشرية والثقافية في آسيا وأفريقيا.

وقد اختلف الباحثون في تحديد بداية الاستشراق ونشأته، فيذكر البعض أنه بدأ في القرن العاشر الميلادي، ويقول أربري[2] بأن مصطلح الاستشراق استعمل لأول مرة في سنة 1691، بينما يرى بعضهم أن الاستشراق بدأ في أعقاب الحروب الصليبيّة، وهناك من يعتبر الحملة الفرنسيّة على مصر وسائر البلاد في سنة 1798م هي البداية الحقيقيّة للاستشراق؛ لأن هذه الحملة جاءت ومعها عدد كبير من العلماء والباحثين الذين قاموا بدراسات كثيرة حول الشرق.[3] بذلك كان من الطبيعي أن يظهر مصطلح الاستشراق في فرنسا بعد سنة من الحملة الفرنسيّة على مصر[4]، وأن تدرج لفظة "الاستشراق" في قاموس الأكاديميّة الفرنسيّة عام 1938.

---

1 الزيات، أحمد حسن، **تاريخ الأدب العربي** (القاهرة: دار النهضة مصر، ط24، د.ت.)، ص512.

2 Arberry, J. A. *British Orientalists*) William Collins of London, 1943), p. 8.

3 عليان، محمد عبدالفتاح، **أضواء على الاستشراق** (الكويت: دار البحوث العلمية، 1400هـ/1980م)، ص7.

4 زقزوق، محمود حمدي، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري** (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية، ط1، 1404هـ)، ص40.

إنّ انتشار الإسلام قد هدّد نفوذ النصرانيّة في كثير من الأماكن، وتساقطت الإمبراطوريّة الرومانيّة أمام الزحف الإسلامي، وسقطت القسطنطينيّة ومن بعدها معاقل كثيرة حتى طرقت جيوش الفتح الإسلامي أبواب فيينا في قلب أوروبا. ثم اندلعت الحروب الصليبيّة، وبدأ معها الغزو الفكري للشرق، فظهر المستشرقون ليقدموا المدد للتنصير والاستعمار، ويغذوا عمليّة الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ويشكلوا المناخ الملائم من أجل القوى الأوروبية السيطرة على الشرق الإسلامي. وقد هيأ الزحف لعلماء أوروبا السيطرة على قطاع واسع من مصادر التراث الإسلامي فبادروا إلى التحقيق والنشر لمجموعة منها، وقدموا دراسات عديدة ومتنوعة لجوانب مختلفة في ذلك التراث.

ولئن كان من الطبيعي أن لا نعتبر المستشرقين فئة واحدة من حيث مناهجهم وتوجهاتهم الفكرية ومن حيث أغراضهم العلمية والثقافية والسياسيّة[1]، إلا أننا نستطيع القول إنّه خلال جميع مراحل الاستعماري لعب المستشرقون – أو على الأقل قطاع مهم منهم – دوراً أساسيًّا في التمهيد والتسويغ للتوسع الاستعماري ولتوطيد سيطرة الغرب على الشرق، وإن اهتمامهم بتراث الشرق ولغاته كان مبعثه ونقطة انطلاقه الغرض الديني بشكل رئيس، فالردّ على المسلمين ومجادلتهم والدعوة إلى المسيحيّة والتبشير بها بين المسلمين وغير المسلمين من شعوب آسية وأفريقيّة الذين دخلوا أو خطط لدخولهم في تبعيّة الدول الغربيّة المستعمرة كانت كلها من بين العوامل التي دفعت عجلة الاستشراق إلى الأمام.

على أننا نريد بذلك أن نقول إن الدافع الوحيد كان الدافع الديني التبشيري أو الاستعماري، ولكن الاستعمار في رأينا كان من العوامل المهمة التي ساعدت على

---

[1] راجع حول هذه الجوانب في إنتاج المستشرقين الأبحاث الرصينة ضمن كتاب **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية** (جزءان) (الرياض: المنظمة العربية للتربية والثقافة للعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، 1985/1405).

تطور الاستشراق وتوسع نطاقه. فقد رأت الدول الاستعماريّة أنه لابد لها من أجل تحقيق أغراضها السياسيّة والاقتصاديّة[1] في الدول الشرقيّة من أن تستفيد من حركة الاستشراق لتيسير تحقيق تلك الأغراض، وبعد قيام الحركة الاستعماريّة الأوروبيّة في القرون الحديثة وشعور المستعمرين بأن الدراسات الاستشراقيّة التي قامت في الأساس لخدمة أغراض دينيّة يمكن الافادة منها في وسيلة ناجعة للتغلغل وتثبيت النفوذ الاستعماري، قامت الدول الأوروبية بدعم حركة الاستشراق ومدها بالعون المادي والمعنوي، ورعت مؤسساتها، وساعدت على إنشاء جمعياتها، ووفرت لها ما تحتاج إليه من أموال. فمثلاً فرنسا لجأت إلى حجج ذات صبغة تاريخية وثقافية واقتصادية من أجل تبرير إرادتها في أن تقيم نفوذاً مهيمناً في الشرق الأوسط وبخاصة في سورية وفلسطين، فتظاهرت كأنها الحامية للسكان الوطنيين تجاه استبداد السلطة العثمانية.[2]

وينبغي أن ننبّه إلى أنّ الكثير ممّن نسمّيهم بالمستشرقين لم يكونوا علماء أو أساتذة جامعات أو رجال بعثات أثريّة، بل كان بينهم العديد من الجواسيس والموظفين في وزارات الخارجيّة ووزارات المستعمرات ودوائر الاستخبارات. ويمكن أن نؤكد أيضًا أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة كليّات اللغات الشرقيّة في أوروبا كانوا يرجعون إلى آرائهم قبل أن يتخذوا القرارات المهمّة في الشؤون السياسيّة الخاصة بالأمم الشرقيّة والإسلاميّة[3].

---

[1] ويضيف فيليب س. خوري إلى العمودين المذكورين الاقتصادي والسياسي عموداً ثالثا وهو العمود المعنوي ويقصد به جميع ما قام به المبشرون والمستشرقون لأجل هدم القيم الاسلامية في الشرق وتقوية الأنشطة التبشيرية فيه. انظر:
Philip S. Khouri, *Syria and the French Mandate*) Princeton: Princeton University, 1987), p. 3.

[2] كريم، مصطفى، "المنافسة الامبرالية الفرنسية الانكليزية والاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان مقتبس عن المصادر الفرنسية" مقالة نشرت في: المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام 1516-1939 (دمشق: جامعة دمشق-كلية الآداب، 1978)، ص321.

[3] ومع الأسف الشديد نحن لم نستفد من هذه الطريقة في التعامل مع الخبراء والباحثين المختصّين، وفي كثير من البلاد الشرقيّة – ونستثني منها بعض البلاد التي تحترم آراء المواطنين وتحكم بطريقة ديموقراطيّة على شعوبها –

وعلى أي حال، فالمستشرقون حين يبحثون في تاريخنا الإسلامي يقتصرون على بحث الأمور التي لا تمسّ نواحي عزّة هذه الأمة ومساهمتها في حضارة العالم وتراثه، وكان جانب كبير من اهتمامهم قد تركز على الفتن والحروب الأهليّة والفرق الدينيّة ومظاهر الانقسام التي تظهر سلبيات هذا التاريخ؛ لأن الشرق منذ الفتوحات الإسلاميّة كان مصدر قلق بالنسبة للغرب وخوف على مصالحه السياسيّة والدينيّة. وإن تطور الرأسماليّة الغربيّة ووصولها إلى المرحلة الإمبرياليّة جعل هذه الإمبرياليّة تخضع دول الشرق لسيطرتها الاقتصاديّة، وبالتالي أوجب إدخال هذا الشرق ضمن المنظومة الإمبرياليّة بكل مؤسساتها، وبغية إحكام السيطرة أكثر اهتمت الدوائر الغربيّة بموروثات الشرق الثقافية وتقاليده الدينية، فاستحدثت علمًا يخضع لتوجيهاتها أسمته الاستشراق، والاستشراق في مفهومه الإمبريالي عند إدوارد سعيد[1] يشتق من علاقة تقارب خاصة بين بريطانيا وفرنسا والشرق، وكان من أهمّ النتائج التي ترتبت على تطور الاستشراق واتساع ميادينه وتونع موضوعاته أن شعر المستشرقون بضرورة التخصص، فنشأت فروع استشراقيّة عديدة من أهمها فرع الدراسات الإسلاميّة الذي انقسم بدوره إلى فروع عديدة بينها ميدان اللغة والتاريخ والعقيدة والفن والمخطوطات وسواها من الميادين ولما بدأت الحركة الاستشراقيّة تتخذ لنفسها طابع العلميّة والحياد أخذ المستشرقون يتظاهرون بالتحرر من التعصب الديني ويدعون أن هدفهم من دراساتهم الإسلاميّة هو معرفة صحيحة بعيدة عن كلّ تصور مسبق أو هدف غير علمي.

نشاهد أن القرارات تتخذ من قبل الحاكم أو الأمير أو السلطان أو رئيس الدولة دون الرجوع إلى المختصّين وأساتذة الجامعات والباحثين في المعاهد العلميّة التي تموّلها وتؤيّدها الحكومة نفسه.

[1] سعيد، إدوارد، **الاستشراق**، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1981)، ص29؛ خيرالله رشك سعيد، "الاستشراق" مجلة **دراسات عربية**، بيروت، العدد 9، السنة 26، تموز-يوليو 1990، ص105.

علاقة الاستشراق الفرنسي بسورية: نشأتها وتطورها

إنّ أوّل دراسة منتظمة للإسلام وتاريخه في أوروبا الغربية تعود إلى نهاية القرن السادس عشر، ففي سنة 1587 بدأ تدريس اللغة العربية بانتظام في الكوليج دي فرانس في باريس،[1] كما أقدمت فرنسا على جمع المخطوطات الإسلاميّة، فبلغ عددها في مكتبة باريس الوطنيّة سنة 1654م بضعة ملايين، منها سبعة آلاف مخطوط باللغة العربيّة تضمّ نفائس الكتب العلميّة والأدبيّة والعقائديّة والتاريخيّة قلما يوجد مثلها في غيرها.[2] ولذلك انصبت اهتمامات المستشرقين على دراسة الإسلام بشكل جادّ وعميق من عدّة زوايا وجوانب، بل إنّهم أوجدوا المختصين في كلّ مجال من المجالات المعرية التي تتصل بالإسلام. ومن ثمّ انطلقوا بشأنه مسلمات أساسيّة ثابتة حدّدت مسار تفكيرهم منها: أ- عدم الاعتراف بأيّة حضارة للعرب قبل الإسلام، ب – عدم الاعتراف بكون الإسلام ديناً سماويّاً، فهو إمّا من صنع محمّد ﷺ، وإمّا أنّه اقتباسات متناثرة من اليهود والنصارى، جـــ – عدم الاعتراف بالإسلام كرسالة إلى العالم[3]. ولمّا كانت فرنسا من تلك الدول الاستعماريّة التي انطلقت إلى احتلال الشرق،[4] فقد

---

1 حوراني، ألبرت، **الإسلام في الفكر الأوروبي** (بيروت: مؤسسه نوفل، 1994م)، ص22.

2 بهاء الدين حسين أحمد، محمد، **حقيقة الاستشراق وموقفه من الإسلام منذ ظهوره إلى نهاية الألفية الثانية** (كوالالمبور: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 2003م)، ص47-48.

3 رشك سعيد، خير الله، "الاستشراق"، مجلة **دراسات عربية** (بيروت، 1990)، العدد 9، ص106-107. ونلاحظ هنا ما كان لبعض المستشرقين من أثر في تطوير وبث بعض النظريات في تقويم البشر من منطلقات عنصرية، نذكر منهم الفيلسوف الفرنسي إرنست رينان (1823-1892) حيث وضع نظريّة الجنس أساساً مباشر لأحكامه المعروفة على الفلسفة العربيّة الإسلامية وخرج بنظريّته القائلة: "بأنّ الجنس السامي أدنى مرتبة من الجنس الآري وغنيّ عن القول إنّ نظريّة الجنس هذه أصبحت فيما بعد الأساس النظري والإيديولوجي للنازيّة الهتلريّة المعادية للعلم وللإنسان وللحضارة البشريّة. انظر: درغام، أحمد، "بعض ملامح الاتجاهات الرئيسية في الاستشراق" في **دراسات تاريخية** (دمشق: 1984)، العددان 17-18، ص47

4 من المراجع المهمة في مرحلة الانتداب الفرنسي: المعلم، وليد، **سوريا 1918-1958: التحدي والمواجهة** (دمشق: مطبعة عكرمة، 1985)؛ الحكيم، يوسف، **سورية والانتداب الفرنسي** (بيروت: دار النهار للنشر، 1991م)؛ الحكيم، يوسف، **سورية والعهد الفيصلي** (بيروت: دار النهار، 1986).

بدأت حركة الاستشراق الفرنسي منذ القرنين السابقين وسبقت فرنسا سائرَ الدول الأوروبيّة في هذا المجال.[1]

ويرى المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون[2] Rodinson Maxime أنه إبان مرحلة التوسع الاستعماري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي كان من آثار ارتباط الاستعمار بالاستشراق أن استفاد الاستعمار بما أنتجه الفكر الاستشراقي. وقد كان من آثار هذا الارتباط أن عزّز الاستعمار موقف المستشرقين في البلاد الشرقية الإسلامية،[3] فقد أنشأت فرنسا معاهد كثيرة في البلاد الإسلامية التي احتلتها، فأنشأت المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بمصر سنة 1880م، وأنشأت كلية بورجاد في تونس سنة 1841م، ثمّ تحوّلت إلى جامعة للآداب العربية. وكذلك أنشأت في المغرب معهداً للدراسات المغربية بالرباط سنة 1931م، وأنشأت مدرسة الآداب العالية بالجزائر سنة 1881م، ثمّ تحوّلت إلى جامعة سنة 1909م، ولها في دمشق المعهد الفرنسي أنشأته سنة 1922م، وكذلك أنشأت المعهد الفرنسي بطهران سنة 1948م،

---

1 لابدّ من الإشارة إلى أنّه، ومع مطلع خمسينيات القرن التاسع عشر، أخذت المسألة الشرقيّة أبعاداً خطيرة جدّاً على مستوى السياسات التي كانت سائدة بين الدول العظمى آنذاك، وبدأت تعيش صراعاً دبلوماسياً بينها، لم يكن ممكنا لأحد أن يتنبّأ بنتائجه، وقد وصف كارل ماركس المسألة الشرقيّة في تلك المرحلة قائلاً: "لقد وصلت على ما يبدو إلى درجة فقد فيها الدبلوماسيون قدرتهم على السيطرة عليها، ولم يعد باستطاعتهم استخدامها لخدمة مصالحهم وأهدافهم، أو حتى وقف تدهور الأحداث". ومن أمثلة ذلك محاولات الكنيسة الأرثوذكسية الروسيّة بالتنسيق مع وزارة الخارجية الروسيّة لزيادة وتفعيل النفوذ الروسي في بلاد الشام، حيث وجدت بطرسبورج نفسها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على هامش الأحداث في الشرق الأوسط. فقد أضرّت الحرب الروسيّة التركية بالعلائق بين البلدين، بينما احتلّت بريطانيا مصر سنة 1882، وقويت مؤسّساتها في فلسطين في عهد الأسقف غوبات، وازدهرت في عصره أيضاً الجمعيّات الدينيّة الألمانيّة.

2 مكسيم رودنسون مستشرق وعالم اجتماعي فرنسي ولد في باريس سنة 1915 وأتمّ دراسته فيها، ثم قضى سبع سنوات في الشرق الأوسط أستاذاً ثم موظفاً في مصلحة الآثار في بيروت وله بالإضافة إلى مجلة الشرق الأوسط التي كان يديرها دراسات عديدة عن الشرق المعاصر. انظر عنه: رودنسون، مكسيم، **الإسلام والرأسمالية**، ترجمة نزيه الحكيم (بيروت: دار الطليعة، ط1، 1968م)، ص5-6.

3 رودنسون، مكسيم، **تراث الإسلام**، ترجمة محمد زهير السنهوري (القاهرة: سلسلة عالم المعرفة، ط1)، ص83.

وكان من أهم نشاطات هذا المعهد الاهتمام بالفرق الإسلامية. فمن الكتب التي طبعها هذا المعهد كتاب "الشرح والإبانة عن أصول السنة والديانة ومجانبة المخالفين ومباينة أهل الأهواء المارقين"، لأبي عبدالله عبيدالله بن محمد بن محمد بن حمدان بن بطة العكبري، حقّقه هنري لاوست وطبعه المعهد الفرنسي بدمشق سنة 1958م.[1]

ومن أمثال هذه الدراسات الفرنسية في مجال الفرق الإسلامية كتاب "الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم" لألفرد بل، وقد ترجمه عن الفرنسية عبدالرحمن بدوي ونُشر في بيروت سنة 1969م، وقد استوفى المؤلف الجانب التاريخي في تسلسل الفرق والمذاهب الإسلامية، وبقي ما كان المؤلف يهدف إليه ووعد بتحقيقه في الجزئين الثاني والثالث اللذين لم يظهرا. وجدير بالذكر أنّ المؤلف استفاد في أكثر من مكان من غولدسيهر Goldziher (1850-1920م) وأحكامه التي أصدرها بحقّ الفرق الإسلاميّة مما هو مدْعاة للتأمل والنقد.[2] وغولدسيهر كان من أكبر العلماء اليهود على الإطلاق، وكان واسع الاطلاع، كثير الانتاج، ذائع الشهرة، وقد مكّنه ذلك من الدسّ على الإسلام في كتاباته، مع قدرة فائقة على التمويه والخداع.[3]

ولقد أخذت معظم دول أوروبا تحذو حذو فرنسا في الاهتمام بالدراسات الشرقية والإسلامية.[4] وكانت باريس حتى ما بعد النصف الأول من القرن التاسع عشر عاصمة الاستشراق.[5] وعلى الرغم من المحاولات الجديّة المبذولة من قبل بعض المستشرقين المنصفين في العصور الحديثة لالتزام الموضوعية العلمية والنزاهة البحثية في دراساتهم الإسلامية، إلا أنهم لم يتمكّنوا من التحرّر الكامل من المواقف المعادية للإسلام في القرن

---

1 ضيائي، علي أكبر، **فهرس مصادر الفرق الإسلامية** (بيروت: دار الروضة، 1990)، ج1، ص24.

2 المصدر نفسه، ج1، ص28.

3 عليان، **أضواء على الاستشراق**، ص112-113.

4 بهاء الدين حسين أحمد، محمد، **حقيقة الاستشراق وموقفه من الإسلام منذ ظهوره إلى نهاية الألفية الثانية** (كوالالمبور: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 2003م)، ص34.

5 المصدر نفسه، ص45.

التاسع عشر حتى عند الفلاسفة والكتاب المشتغلين بتاريخ الفلسفة، ومن أمثال هؤلاء فلتور كوازن الفيلسوف الفرنسي المتوفّى سنة 1847م الذي يقول في إحدى محاضراته بجامعة باريس: "أيّها السادة! المسيحيّة التي هي آخر ما ظهر على الأرض من الأديان هي أيضاً أكملها، والمسيحيّة تمام كل دين سابق، وغاية الثمرات التي تمخضت عنها الحركات الدينية في العالم، وبها ختمت، والدين المسيحيّ ناسخ لجميع الأديان."[1]

وقد شهد القرن التاسع عشر بداية المؤتمرات الدولية للمستشرقين، فقد بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية خلال الفترة من 1873 إلى 1964م ستة عشر مؤتمراً، وقد عقد أوّل مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس عام 1873م، ومنذ ذلك الحين ما انفكت هذه المؤتمرات تعقد بصورة منتظمة.[2]

ولّما كان السياسيون الفرنسيون في أوائل القرن العشرين بصدد تجزئة سورية إلى دويلات مستقلة، فقد احتاج مشروعهم هذا إلى دراسة النسيج الديني الثقافي لهذه المنطقة وإلى نشر كلّ ما من شأنه إثارة النزعات العرقية أو الطائفية بين المسلمين، إضافة إلى محاولتها نشر الثقافة الفرنسية واللغة الفرنسية وبالتالي فرنسة الأقطار الواقعة تحت قبضتها.[3] وساعدهم المستشرقون في تحقيق أهدافهم لتجزئة البلاد الإسلامية إلى دويلات مستقلة يمكن أن تسيطر عليها فرنسا بسهولة، وذلك بما قدموه من دراسات وبحوث دقيقة عن الخريطة الإثنية والعرقية والعقائدية في المنطقة، وبما أبرزوه في تلك

---

[1] بهاء الدين حسين أحمد، محمد، **حقيقة الاستشراق وموقفه من الإسلام**، ص152-153.

[2] زقزوق، **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاريّ**، ص43.

[3] مؤتمر سان ريمو عهد إلى فرنسة، في إبريل سنة 1920، بالانتداب على سورية كلها. وفي معاهدة سيفر (10 آب سنة 1920) وضعت سورية كدولة مستقلة تحت الانتداب الفرنسي ريثما تصبح أهلا للحكم الذاتي، ولكن هذا لم يمنع فرنسة من تجزئة سورية إلى أربع دول هي لبنان الكبير، دمشق، حلب ودولة العلويين. ليس هذا فحسب، لقد ضمّت بيروت وطرابلس والبقاع إلى لبنان أيضا حتى حيل بين سورية وبين البحر حيلولة تامة. وفي الدول الأربع جميعاً تقلد أزمة السلطة موظفون فرنسيون على الرغم من إسناد حكومة دمشق إلى حاكم سوري موال للدولة المنتدبة. بروكلمان، كارل، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، ط11، 1988)، ص862-763.

الدراسات من العوامل التي يمكن استغلالها لزرع بذور الفتنة والشقاق بين الفرق والطوائف المختلفة،[1] وقد تمت لها تلك السيطرة بغطاء قانوني وفره لها اتفاق سان ريمو المبرم بتاريخ 20 نيسان 1920 منح فرنسا حق الانتداب على سورية ولبنان وفي 31 آب 1920 أصدر المفوض السامي في بيروت قرارًا رسم فيه حدود مقاطعة اللاذقية التي أصبحت تتألف من أقضية اللاذقية وصهيون وجبلة والمرقب وصافيتا وحصن الأكراد ومصياف وطرطوس. وفي عام 1922 صارت هذه المقاطعة الأخيرة تشكل دولة، وفي عام 1924 أعلن بقرار أنها مستقلة تماما عن سورية، وأصبح يحكمها حاكم فرنسي يعاونه مدراء دوائر معظمهم فرنسيون في مطلع عهد الانتداب.[2]

---

[1] يقول عبدالقهار داود عبد الله العاني في كتابه **الاستشراق والدراسات الإسلامية** (عمان–الأردن: دار الفرقان، ط1، 1421هـ/2001م)، ص46: "إن الفتن باب من أبواب التدخل الأجنبي الاستعماري، وقد تدخلت كل من إنجلترا وفرنسا في هذا الخلاف، وكانتا تشعلان نار الفتنة كلما حاول القائمون على الأمر إخمادها، وأخذ الإنجليز والفرنسيون يتخذون هذا الاحتكاك بين الطوائف ذريعة للتدخل في شؤون لبنان، وانحاز الفرنسيون إلى جانب الموارنة وانحاز الإنجليز إلى جانب الدروز، مما أدى إلى تجديد الاضطرابات سنة 1845م بشكل فضيع شمل الاعتداء فيه الأديرة والكنائس واستعمل فيه السلب والقتل، مما اضطر الحكومة العثمانية إلى إرسال ناظر خارجيتها إلى لبنان ليتلافى الأمر بما لديه من الصلاحية المطلقة ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ناجحاً" ثم يقول: "أخذت كل من إنجلترا وفرنسا تؤيد جماعتها، فالإنجليز يؤيدون الدروز والفرنسيون يؤيدون النصارى. وبذلك توسعت الفتنة توسعاً عاماً حتى شملت جميع لبنان".

[2] منذ دخل الفرنسيّون سوريّة بدؤوا بتقسيم البلاد إلى حكومات: حلب، اللاذقية، دمشق، والسويداء ممّا دعا السوريّين إلى رفع شعار الوحدة السورية. وبعد أن غادر فيصل سورية قرّر الجنرال غورو الفرنسي في آب 1920 تحديد دولة لبنان الكبير بدمج لواء جبل لبنان القديم في لواء بيروت وفي الوقت نفسه حدّد بلاد العلويين وضمّ قضاء مصياف إليها. ومن الوثائق الموجودة حول عملية تجزئة سورية الرسالة التي وجهها الجنرال غورو إلى حكومة دمشق بأنه جعل ولاية حلب دولة مستقلة مع بقاء لواء الإسكندرون جزءاً منها، وكانت دولة جبل الدروز هي الدولة المستقلة الرابعة بحجة أنّ هناك رغبات درزية في ذلك، وابتكر الفرنسيون دولة خامسة هي دولة البدو ولكن سمّوها مصلحة العشائر وجميع هذه الدول يديرها مندوبون فرنسيون. بروكلمان، كارل، **تاريخ الشعوب الاسلامية**، ص762، وانظر أيضاً: الأمين، حسن، **غارات على بلاد الشام** (دمشق: دار قتيبة، 1421هـ/2000م)، ص287–294؛ كوثراني، وجيه، **السلطة والمجتمع والعمل السياسي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1988م)، ص216.

Longrigg, Stephen Hemsley, *Syria and Lebanon under French Mandate*) Beirut: Librairie du Liban, 1968), p. 129.

في هذه المقالة نركز على بحوث المستشرقين الفرنسيين عن الفرقة النصيرية لنبين أهدافهم في منطقة الشرق الأوسط، ولا نتطرق إلى سائر الفرقة الموجودة[1] في سورية نحو الإسماعيلية والدروز، ولا عقائدهم، لأن ذلك يقع خارج دائرة بحثنا هذا.

وتمّ تنظيم تسلسل جهاز الحكم الفرنسي على الشكل التالي:

أولاً: يمثل فرنسا في سورية ولبنان مفوض سامٍ يتبع وزارة الخارجية الفرنسية الوسيطة بينه وبين عصبة الأمم، ومقرّه بيروت.

ثانياً: يساعده مكتب سياسي ومكتب للدراسات التشريعية ومكتب استشاري للأمور المالية يضع الموازنات ويراقبها، ومكتب الاستخبارات ويضمّ 71 ضابطاً ومساعديهم، ومكتب لتفتيش الجمارك، وآخر للمصالح الصحفية، وآخر للقضايا الاقتصادية والزراعية، ومكتب للشؤون الأثرية والدراسات الاستشراقية ومصالح للأمن العام ومصالح للبريد ومصالح للصحة.

وهذا يعني أنّ كلّ خيوط الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية كان يتصل بأصابع مكاتب المفوضية العليا الفرنسية، وغاية هذه المحاولات تحويل الطائفة إلى قومية بحيث تكون هناك أمة مارونية وأمة درزية وأمة علوية. وكان لكلّ دولة حاكم مباشر هو مندوب المفوض السامي فيها، وكان مندوبا العلويين والدروز يحملان اسم حاكم مدني[2]. وبعد أن تبيّن الجنرال الفرنسي هنري جوزيف إوجين گورو Henri Joseph Eugène Gouraud فشل سياسة التجزئة وإصرار أهل البلاد على وحدتها، قرّر إنشاء اتحاد بين الدول السورية الثلاث: دولة حلب ودولة دمشق وأراضي العلويين المستقلة بزعم أنّ هذه الدول متقاربة في مستواها الحضاري وفي

---

[1] ومن المستشرقين الذين كتبوا عن الفرق الإسلامية: فون كريمر: **تاريخ الفرق في الإسلام**، وهوتسما: **العقيدة الإسلامية والأشعرية**، وبرنارد لويس: **أصول الإسماعيلية**، وإيفانوف: **الإسماعيلية في الهند**، وشتروثمان: **الزندقة والإسماعيلية والإباضية والشيعة**، وهابولد: **المذاهب الباطنية**، انظر: عليان، **أضواء على الاستشراق**، ص55.

[2] حسن، نجاة، قصاب، **صانعو الجلاء في سورية** (بيروت: شركة المطبوعات، ط1، 1999)، ص328.

بناها الاجتماعية والدينية[1]. وكان يرشد هذه الأفكار مثقفون ومستشارون هم في الواقع مستشرقون فرنسيون، فكان من نتائج هذا التقسيم أن ارتفع عدد المستشارين الفرنسيين وكبار الموظفين السوريين والفرنسيين إلى أربعة أمثال ما تتطلبه الدولة السورية موحدة.[2]

ومن المعروف – كما ذكرنا – أن رجال السياسة في فرنسا كانوا على صلة وثيقة بأساتذة المؤسسات الاستشراقية الفرنسية في الشرق الأوسط، وكانوا يرجعون إلى آرائهم قبل أن يتخذوا القرارات المهمّة في الشؤون السياسية الخاصة بالشعوب العربية والإسلامية. وهكذا كانت العلاقات بين المؤسسة الاستعمارية والمؤسسة الاستشراقية علاقة عضوية، فقد كان الاستشراق بمثابة الدليل للاستعمار في ربوع العالم الإسلامي بغرض فرض السيطرة الغربية عليه وإخضاعه وإذلال أهله.[3]

المستشرقون الفرنسيون والسياسة الخارجية الفرنسية في القرنين التاسع عشر والعشرين في بلاد الشام

كثير من المستشرقين الفرنسيين في القرن التاسع عشر اشتغلوا بخدمة السياسة الفرنسية، فمنهم دي كوروا Du Caurroy (1767-1832) الذي كان ترجمان الملك لدى السفارة الفرنسية في القسطنطينية، وله كتاب "علاقات فرنسا بالباب العالي"، يدل على مدى درايته في السياسة وتغلغله في عالمها، وله "التشريع الإسلامي في المذاهب

---

1 المصدر السابق، ص333.

2 الحكيم، يوسف، **سورية والانتداب الفرنسي** (بيروت: دار النهار، 1991)، ص44.

3 الشرقاوي، محمد عبد الله، **في الفكر الإسلامي المعاصر: الاستشراق دراسات تحليلية تقويمية** (القاهرة: جامعة القاهرة–كلية دار العلوم، د.ت.)، ص77، يذكر المؤلف قول الدكتور إبراهيم للبان أنه سمع أحد المستشرقين يتحدث أمامه فيذكر أن مستر إيدن كان قبل أن يضع قراراً سياسياً في شؤون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين ويستمع إلى آرائهم، ثمّ يقرّر ما يقرّر في ضوء ما يسمعه منهم.

السنية والشيعية والحنفية". [1]ومنهم هنري بونيون Pognon Henri،[2] الذي عيّن قنصلا لفرنسا في طرابلس الغرب ثمّ في بغداد. ومنهم شارل كلرمون غانّو Clermont- Charles Ganneau (1846-1923م)، الذي درس اللغات الشرقية وترشح للمناصب القنصلية في أنحاء الشرق فخدم فرنسا كترجمان، ثمّ كقنصل في القدس ثمّ في الأستانة ثمّ في يافا. ومنهم فرنسيس تورنبيز Tournebize Francis، الذي صنّف في التاريخ السياسي والديني الأرميني (1910م) ونشر مقالات عديدة عن الأرمن والدروز والرسالات الشرقية.[34] ومنهم سيلفستر دي ساسي Silvester de Sacy (1757-1838) الذي انتخبته مقاطعة السين في فرنسا عضواً في الهيئة التشريعية، ولقب بلقب بارون بأمر إمبراطوري سنة 1813 جزاء خدماته وألف في ديانة الدروز كتاباً من ثلاثة أجزاء نشر الجزءان الأول والثاني في حياته وتوفي في 21 فبراير سنة 1838. ومنهم رينه باسه Basset René (1855-1924) الذي عين قنصلاً لفرنسا بالجزائر فآثر التدريس ورأس مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام 1910. ومنهم جان أرتوركي Jean Arthorki (1874-1928) الذي عيّن – عقب إتمام دراسته – مترجماً في القنصلية الفرنسية بدمشق، فطرابلس الغرب، فزنجبار، ثمّ في سفارتي فرنسا في الآستانة والقاهرة، ثمّ عيّن قنصلاً في زنجبار وطرابلس بليبيا وأزمير في الدولة العثمانية. ومن المستشرقين الفرنسيين الساسة سوفير (1896) الذي عينته حكومة فرنسا قنصلاً لها في سورية، فأقام فيها مدة ساعدته على التضلع في اللغة العربية. ومنهم ليفي بروفنسا Evariste Lévi-Provençal، الذي عيّن ضابطاً في

---

1 M. DU Caurroy, "Législation musulmane sunnite, rite hanéfi", *JA*, 4e série (17) 1851, (19) 1852, 5e série (1) et (2) 1853.

2 ولد سنة 1853م وتوفي في سنة 1921م. انكبّ منذ شبابه على درس اللغات الشرقية كالعبرانية والعربية والسريانية والبابلية وكان أوّل من درّس اللغة الأشورية في مدرسة باريس العليا سنة 1878.

3 توفي في 11 آذار 1926م.

4 شيخو، لويس، "الآداب العربية في الربع الأوّل من القرن العشرين"، مجلة **المشرق**، السنة التاسعة عشر (بيروت: 1921)، ص193-199.

الشؤون الإسلامية بمراكش.[1] وأما كليمان هوار Clement Huart (1854-1927) فهو من المستشرقين الفرنسيين الذين ساعدوا فرنسا في المشاريع السياسية،[2] وكان باحثاً ضليعاً من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق والمجمع العلمي الفرنسي والجمعيّة الآسيويّة.[3] وطار صيته في وزارة الخارجية فانتدبته ليمثلها في مؤتمرات المستشرقين، فمثل حكومته في مؤتمري المستشرقين بالجزائر سنة 1905 وفي كوبنهاجن 1908، فبأبحاثه التاريخية والعقائدية خدم الوزارة الخارجية الفرنسية خلال الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان. وكليمان هوار كتب مقالاً في "المجلة الآسيوية" سنة 1904 زعم فيه أنه اكتشف مصدراً جديداً للقرآن هو شعر أمية بن أبي الصلت، وقارن بينه وبين آيات القرآن.[4]

وقد لعب يوسف كتافاغو Catafago دوراً مهمّاً في حصول الفرنسيين على النسخ المخطوطة والسرّية للنصيرية، وحسب علمنا فإنّ كتاب "تعليم الديانة النصيرية" المهم أُرسِل من كاتب مجهول عبر كتافاغو[5] إلى المكتبة الوطنيّة في باريس. وقد

---

[1] يقول الجبري عنه في: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، ص140-145: " لكنه ولد في الجزائر سنة 1894 وتلقى تعليمه بها فتخرّج من كلية الآداب وفي عام 1919 كلفه المارشال ليوتي بمهمة في معهد الدراسات العليا المراكشية في الرباط، وعيّن أستاذاً فيه سنة 1920، وكان مديراً للمطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية حتى عام 1939، ثم انتدبه حكومته في الجمهورية الفرنسية في الفترة من 1943-1944 في مهام خطيرة طار فيها بين لندن والقاهرة والقدس ودمشق. وقد كوفئ على بلائه في الحرب وعلى جهوده في الاستشراق بأوسمة رفيعة، منها وسام جوقة الشرف."

[2] M. Clement Huart, *La poesie Religieuse Des Nosairis*)Paris :Imprimerie nationale, MCCCLXXX) and printed in: *Journal Asiatique* ,ser, VII, T., XIV, p. 191.
كتب مقالاً باللغة الفرنسية في المجلة الآسيوية الفرنسية حول كتاب الباكورة السليمانيّة في "كشف أسرار الديانة النصيرية"، ونقل إلى الفرنسية قصائد شيوخ النصيرية حول عقائدهم التي أوردها سليمان الأذني في كتابه الباكورة، ثمّ نشرها في باريس. وذكر كليمان هوار قصيدتين من "ديوان التضريع" لخليل النميلي في كتابه "الشعر الديني عند النصيريّة بالفرنسيّة".

[3] قال خيرالدين الزركلي في: **الأعلام** (بيروت: دار العلم للملايين، ط9، 1990)، ج5، ص232: "ولد بباريس وتعلّم بمدرسة اللغات الشرقيّة فيها وتكلّم العربيّة الجزائريّة العاميّة في طفولته وعيّن ترجمانا للقنصلية الفرنسية بدمشق سنة 1875 وبالأستانة سنة 1878 وعاد إلى باريس سنة 1898 فكان ترجمانا في الوزارة الخارجية."

[4] العاني، **الاستشراق والدراسات الإسلامية**، ص92.

[5] Catafago, *Journal Asiatique* ,IV, t, XI, p. 149, ser, VII, I. VIII. P. 523; Ali Akbar Ziaee, *Bibliography of Islamic Sects*) Beirut ,(1990 :I: 65-66.

شاهدت بنفسي توقيع كتافاغو على غلاف الكتاب، وهو على طريقة السؤال والجواب، ويتألّف من 101 سؤال وقد رد مضمونه في كتاب "مذاهب الإسلاميين" لعبد الرحمن بدوي.[1]

يقول هاشم عثمان عن محاولات المستشرقين في البحث عن النصيريّة: "المرجع الأساسي لكتاب "ولاية بيروت" هو ما كتبه المستشرق رينيه دوسو عن النصيريّة. وكلنا نعلم ما جنته وتجنيه أيادي المستشرقين على تراث العروبة والإسلام، ذلك أن المستشرقين في جمهورهم لا يخلو أحدهم عن أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهوديّاً، وأن الاستشراق بصورة عامّة ينبعث من الكنيسة وفي الدول الاستعماريّة يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجيّة جنباً إلى جنب يلقى منهما كلّ تأييد، وأنّ الدول الاستعماريّة ما تزال حريصة على توجيه الاستشراق وجهته التقليديّة من كونه أداة هدم للإسلام وتشويه لسمعة المسلمين. ولهذه نستطيع أن نقول: إنّ كلّ ما ورد في "ولاية بيروت" عن النصيريّة مشكوك فيه."[2]

ويقول الكاردينال لافيجيري Cardinal Lavegerie مميّزاً سياسة فرنسا الدينيّة في الشرق من جميع جوانبها: "إنّ الحروب الصليبيّة الهادئة التي بدأت مبشّرونا في القرن السابع عشر لاتزال إلى أيّامنا هذه، ولقد احتفظت فرنسا طويلاً بروح الصليبيّة وبالحنين إلى تلك الحروب حيّة في نفسها وكان من غايات الامتيازات الأجنبيّة دائماً أن تحتفظ فرنسا بالدور الذي تلعبه رهبانها وكثيراً ما اختارت فرنسا قناصلها وسفراءها من رجال الدين."[3] ومن الوقائع العجيبة في منطقة الساحل السوريّ ظهور شخص باسم سليمان

---

[1] ذكرته في فهرس **مصادر الفرق الإسلامية**، ج1، ص76 وقد ملك يوسف كتافاغو النسخة الأصلية للكتاب في بيروت ونقلها إلى المكتبة الأهلية بباريس، الرقم RAB 6182,.

[2] عثمان، هاشم، **العلويون بين الأسطورة والحقيقة** (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1405هـ/1985م)، ص90-91.

[3] الخالدي، مصطفى، وعمر فروخ، **التبشير والاستعمار** (بيروت: المكتبة العصرية، 1982م)، ص127، نقلا عن: René Pottier, *Le Cardinal Lavigerie, Apôtre et civilisateur* (Paris: Publications techniques et artistiques, 1947), pp. 177-178.

المرشد، زعيم الحركة المرشديّة في بداية القرن العشرين. فهذه الحركة ظهرت في عشيرة "بني غسان" العلوية، واستقلت دينياً عن العلويين بعد أن تحوّلت إلى دين ومذهب روحيّ خاص. ويؤكّد أتباع هذا المذهب أنّ سليمان المرشد لم يدع الناس لأن يتخذوه إلهاً، ولكنّه إمام بشّر بقيام المهدي المنتظر. وقد أعدم سليمان المرشد في عام 1946 وأصبح ابنه مجيب المرشد هو القائم الموعود حسب زعمهم، ولكنه قتل في عام 1952 بأمر من أديب الشيشكلي، وأصبح بعده ساجي المرشد هو الإمام إلى أن توفي في 1998 دون وصيّة. هذه الحركة اجتذبت كثيراً من المستشرقين الفرنسيين والألمان إلى الساحل السوري، قد شهدت بعضَهم في قرى ومدن العلويين في السنيتن 1990-1991، وكانوا يتجوّلون بالباصات (هُبْ هُبْ) من قرية إلى أخرى من دون أن يتعبوا. وقد حصلوا من ذلك على كثير من الوثائق التـــأريخيّة المتعلّقة بالحركة المرشديّة التي سيستغلها الأوروبيّون في المستقبل، وليست هذه اللمعة مجالاً للبحث عن تفاصيل أغراضهم السياسية من مثل هذه البحوث في المنطقة.[1]

ومن أهم هؤلاء المستشرقين لويس ماسينيون[2] Louis Massignon (1883-1962) الذي أنجز بحوثاً عديدة عن الفرق الإسلامية في منطقة الشام والصوفية عامة، ولكن هل يمكن أن نعتبر ماسينيون من المستشرقين الذين قدّموا خدمات جليلة للإسلام والأمة الإسلامية؟ من الصعب أن نجيب عن هذا السؤال بطريقة موضوعية، فنورد ههنا بعض ملامح من حياته الشخصية والعلمية وسيجيب القاري المحترم عن السؤال المذكور بنفسه. فبعد دراساته الأولى في باريس وزياراته إلى شمال أفريقيا قضى

---

[1] كتب جورج بطرس دكر **كتاب مدّعي الألوهية في القرن العشرين أو سليمان المرشد ربّ الجوبة**، وطبعته مطابع الكشاف والحداد باللاذقية سنة 1947.

[2] الأصفر، عبدالرزاق، "المستشرق لويس ماسينيون ما له وما عليه" مجلة **التراث العربي** (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2001م، العدد 83-84). هذا البحث يتناول السيرة الذاتية، والنشاط العلمي والديني لعالم فرنسي مستشرق هو لويس ماسينيون. وهي مستقاة باختصار من كتاب عنوانه: **لويس ماسينيون والإسلام**، للكاتب الفرنسي بيير روكالف Pierre Rocalve، وقد نشره المعهد الفرنسي في دمشق سنة 1993م.

فترة دراسة إضافية في القاهرة، ومن هنا ذهب في بعثة للتنقيب عن الآثار في العراق. ووفقاً لما يذكره فقد أوقفته السلطات العثمانية في مايو سنة 1908م، واتهمته بأنّه جاسوس، وسجن وهدّد بالموت. وليس من المستغرب، في الظروف الامبراطورية العثمانية في ذلك الوقت، أن توقف السلطات المحلية فرنسياً يتجول في الضواحي، ولكن نادراً أن يحكم عليه بالإعدام. وتفيد سجلات القنصل الفرنسي في ذلك الزمن أن ماسينيون أصيب بحمّى قد تكون ناتجة عن ضربة شمس.[1] ولكنه في أخريات حياته انتقد الاستعمار الفرنسي وسياسته الرامية إلى الجموح الدنيوي المادي والغزو والتملك.[2]

لقد أدى لويس ماسينيون خدمته العسكرية في الجيش الفرنسي بين عامي 1902-1903، وثم تطوع، أثناء الحرب العالمية الأولى، في الجيش الفرنسي، ليعمل مترجماً برتبة مرشح ضابط، وأُرسل إلى الدردنيل. وقام بمهماتٍ عديدة للجيش ووزارة الخارجية ومنح وسام صليب الحرب. وفي عام 1916 شارك في أعمال اللجنة الفرنسيّة في اتفاقيّة سايكس بيكو في إنجلترا، ثم عاد إلى مصر حيث قام بمهماتٍ سياسيّة في بورسعيد والقاهرة وجَدّة، والتقى الأمير فيصل ولورانس وعبد الله فيلبي وحاييم وايزمن، ثم شارك في إعداد اتفاقيّة كليمنصو-فيصل عام 1918.

وقد تنقّل في كثير من البلاد الإسلاميّة مراراً كثيرة، وفي الوقت نفسه كان يقدم خدماته ومشورته للدّول المحتلة فيما يخص الإسلام والشعوب الإسلاميّة والعرب. وحينما نشبت الحرب العالميّة الثانية عاد ليضع نفسه تحت تصرف الجيش الفرنسي، فرافق الجنرال ويغاند، وحضر معه حفلة زفاف شاه إيران بأخت الملك فاروق. وخَدَم في الأركان العامة برتبة رئيس كتيبة العاملين في قسم ما وراء البحار، ثم معاوناً لجيرودو وزير الإعلام. وعند انتهاء الحرب الثانية، عاد إلى نشاطه الاستشراقي ومحاضراته ودراساته. وفي عام 1947 هاجمته الصحافة المصريّة متهمةً إياه بأنّه صديق

---

[1] J. Waardenburg, *L'Islam dans le miroir de l'Occident*) Paris ,(1960 ,p. 97.

[2] الشرقاوي، محمد عبد الله، في الفكر الإسلامي المعاصر: الاستشراق دراسات تحليلية تقويمية، ص76.

العرب والمسلمين المزيّف. وباشتعال حرب فلسطين وإخراج الفلسطينيين من أرضهم وإعلان دولة إسرائيل صار له مجال جديد للعمل والمهمات؛ فكثرت زياراته لفلسطين ولا سيما القدس والخليل وبيت لحم، وأدّى خدمات للدولة الفرنسيّة، وقدّم تقارير عن مهماته لوزارة الخارجيّة وظهر متعاطفاً مع العرب من الناحية الإنسانيّة، فزار مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. وكان مناصراً لحركة استقلال الجزائر[1]، وشارك في باريس في الصلاة على الضحايا المسلمين الذين قتلوا في إحدى التظاهرات، وتآزر مع سارتر ومورياك للمطالبة بإنصاف الشعوب المستعمرة والدعوة إلى السلام. وفي إحدى التظاهرات تلقى ضربةً على عينه أفقدته بصره وذلك عام 1957.

ثم تقاعد من العمل في الجامعة وكوليج دو فرانس، وسافر إلى الشرق متفرغاً لدراساته الاستشراقيّة. وقد كان قبل كل شيء رجل دين كاثوليكي حريصًا على أن يقدّم خدمته للكنيسة الكاثوليكيّة، فقد كان مؤازراً لمؤسسة شارل فوكو في مونمارتر، وهي مؤسسة تبشيريّة وكان مؤازراً لجماعة القلبَيْن الأقدسين الكاثوليكيّة التبشيريّة، كما كان دائم المشاركة في المؤتمر العالمي للمؤمنين، ومحرراً في مجلة "الإله الحيّ"، وعضواً دائماً في مؤتمرات تاريخ الأديان، ورُسِمَ أسقفاً في القاهرة، فكان يحرص على حضور القداسات وإحياء ليالي العبادة، وممارسة الصَّوم مع غيره مؤازرةً لبعض القضايا. ويقول إدوارد سعيد: "كان الإسلام في عرف لويس ماسينيون – الذي قد يكون أعظم المستشرقين شهرة وتأثيراً – رفضاً للتجسيد المسيحيّ، وكان بطل الإسلام الأعظم لا محمّداً أو ابن رشد، بل القديس المسلم الذي صلبه المسلمون السنيّون لجرأته على شخصنة الإسلام" (يقصد بذلك الحلاج)، وهكذا نرى ماسينيون جعل محمّداً صلى الله عليه وسلم خارج نطاق البطولة والقيادة ويمنح الحلاج مكانة بارزة لأنه اعتبر نفسه شخصيّة كشخصيّة المسيح عند النصارى في ادّعاء الاتحاد.[2]

---

[1] حوراني، **الإسلام في الفكر الأوروبي**، ص73.

[2] سعيد، إدوارد، **الاستشراق: المعرفة – السلطة – الإنشاء**، ترجمة كمال أبو ديب (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، 1981م)، ص54؛ بهاء الدين حسين أحمد، محمد، **حقيقة الاستشراق وموقفه من الإسلام**، ص186-187.

وقد شكك كثير من الدارسين والمثقفين في مصداقيّته، ولا سيما بالنظر إلى خدماته الرسميّة في الجيش الفرنسي ووزارة الخارجيّة، ودخوله في ميادين السياسة الغربيّة في الشرق العربيّ والإسلاميّ، وإنْ كان يحاول دوماً إظهار الصداقة للمسلمين. يقول الشرقاوي: "كان هذا المستشرق مستشاراً للإدارة الاستعمارية الفرنسية في الشؤون الإسلامية وزيادة في التضليل والخداع والتمثيل زعم أنه قد أسلم، وتسمى بعبده محمد ماسينيون، وقد كتب فيما كتب خطاباً إلى الشيخ محمود شكري الآلوسي عام 1932م، ومهره بهذا التوقيع[1] ولقد مارس ماسينيون بأصالة أفكاره وقوة ذهنه تأثيراً عميقاً على الدراسات الإسلامية في فرنسا، بل وفي تشكيل نظرة الغربيين إلى الإسلام والشرق."[2]

ويقول إدوارد سعيد: "ومن الحمق ألا يحترم المرء العبقرية المحض والجدة الطرية لعقل ماسينيون،" ثم يقول: "لكن علينا أن نقرّ باحتمال أن عمليات التشذيب والتصفية والأسلوب الشخصي والعبقرية الفردية قد تتجاوز في النهاية الكوابح السياسية التي تفعل لا شخصانياً عبر التراث وعبر المناخ القومي. ومع ذلك ففي حالة ماسينيون ينبغي أن ندرك أيضاً أنّ أفكاره عن الشرق بقيت تقليدية واستشراقية تمامًا، على الرغم من شخصيتها وشذوذيتها المميزة الاستثنائية.[3]" ومن حسناته أنه ألقى أضواء كثيرة على جوانب مهمة من التراث الإسلامي والحضارة الإسلاميّة، كما شجّع كثيرين من رجال الدين على القيام بدراسات إسلاميّة، ودعا كذلك إلى التقارب بين أتباع الديانتين العظيمتين (الإسلام والمسيحية) واعتراف كلٍّ طرف بالطرف الآخر وشجع على دراسة التصوف الإسلامي وسدّ فراغاً كبيراً في الدراسات

---

1 الشرقاوي، "في الفكر الإسلامي المعاصر: الاستشراق دراسات تحليلية تقويمية"، ص257، نقلاً عن: مجلة **المورد** الصادرة عن المجمع العلمي بدمشق، عدد 21، 1975، ص176.

2 الشرقاوي، "في الفكر الإسلامي المعاصر: الاستشراق دراسات تحليلية تقويمية"، ص256-257.

3 سعيد، إدوارد، و، **الاستشراق: المعرفة – السلطة – الإنشاء**، ص273.

المغربيّة، وقد بيَّنَ خطأ الغرب، ولا سيما فرنسا وإنجلترا، في ازدراء بلاد الشرق الأوسط وشعوبها وطالبه بالعدل والإنصاف، وتعاطف مع الفلسطينيين واللاجئين العرب، ودعا إلى حلّ سلميّ عادلٍ وأدان الصهيونيّة.[1] وكان لعمل ماسينيون الأثر البالغ في العلماء الفرنسيين من أبناء جيله والأجيال التي تلت.[2] ولعلّه من الممكن القول إنّ لويس ماسينيون خلال وجوده في سورية وضع المصادر والمراجع التي حصل عليها تحت تصرّف الكتّاب الفرنسيّين إلاّ أنّ الشكوك نالت من قيمتها العلميّة، إذ أظهر البحث الدقيق لبعض الكتب المخطوطة المنسوبة للطوائف المختلفة أنـــّها كانت عرضة لتلاعب مثيري الفتنة والفرقة، وتمثّلت المصادر التي استقطبت اهتمام الفرنسيّين في هذه الكتب، وتقارير الجنرالات الفرنسيّين، وأخبار متفرّقة من التجّار والسيّاح الفرنسيّين في تلك المناطق.

محاولات الإدارة الاستعمارية الفرنسية في التجزئة الطائفية لسورية من خلال وثائق وزارة الخارجية الفرنسية

تغطي هذه الوثائق التي أرسلها العلماء والخبراء وأساتذة الجامعات إلى وزارة الخارجيّة الفرنسيّة جوانب مختلفة للطوائف الموجودة في سورية ،كالجانب الاقتصادي والاجتماعي والعسكري والسياسي، فمثلاً أرسلت الحكومة الفرنسية في بعثات لدراسة وضع البلاد عيانياً (مثلاً هولين Huvelin أُستاذ كلّيّة الحقوق في جامعة ليون) قناصل وأجهزة خاصة بجمع المعلوماتService des Renseignements . وكانت فرنسافي إطار سعيها لتحقيق أهدافها في سورية، قد دعت أتباعها كافّة إلى جمع المعلومات عن القبائل والفرق والمجموعات الفرقية والدينية المختلفة. وقد بدأت الدراسات الفرنسيّة من التقارير العامّة حول المناطق المختلفة في سورية ووصلت

---

1 الشرقاوي، "في الفكر الإسلامي المعاصر: الاستشراق دراسات تحليلية تقويمية"، ص256-257.

2 حوراني، ألبرت، **الإسلام في الفكر الأوروبي**، ص14.

بالتدريج إلى عقائد العلويّة والدروز والإسماعيلية وكياناتهم الدينيّة، وطبيعة الارتباط مع الشيوخ والخلافات القديمة بين القبائل. ومن خلال دراستنا لوثائق الخارجية الفرنسية المجموعة في مجلدات موزعة على أبواب:

Levant, Série, E, Liban-Syrie 1919-1929 - ,Turqui, Geuerre 1914-1918-

توقفنا عند بعض الوثائق التي تبرز هذه الجوانب المغمورة.[1]

وهذه الوثائق مهمة من زاويتين: من زاوية غنى هذه الوثائق بما تشتمل عليه من معلومات، ومن زاوية أن انتصار الاستعمار الفرنسي في مشاريع سيطرته وتجزئته لبلاد الشام لم يكن مجرد انتصار آلة عسكرية، بل كانت هناك قاعدة علمية للتحرك الفرنسي الدبلوماسي والعسكري من خلال وثائق هي أشبه بتقارير علمية ومعرفة عيانية، وهذا يدلنا على أن الاستشراق الفرنسي لعب دوراً مهماً للحصول على هذه العرفة، وقد ارتكزت المشاريع الإدارية السياسية التي حملتها المراسلات إلى حدّ كبير على التقارير والدراسات السوسيولوجية الوصية التي أعدّها المستشرقون الفرنسيون.

واشتملت وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة في الفترة الواقعة بين عامي 1918 و1929م على أبحاث حول الشيعة ـــ الذين كان يرأسهم كامل بك الأسعد – والدروز والعلويّين والقبائل العربيّة والشراكسة وغيرهم. هذه الوثائق – التي هي في واقعها بحوث فرق جمع المعلومات الفرنسيّة في المنطقةـــ كانت موجّهة بشكل كامل لخدمة أهداف المستعمرين الفرنسيّين. وقد سعوا عبر هذه البحوث لتحديد نقاط ضعف الطوائف المختلفة، ومن ثمّ اختراقها من خلالها، وكذلك التعرّف على مواضع القوّة فيها للعمل على توصيتها، وكلّ ذلك لتعزيز السياسة الفرنسيّة في المنطقة.

في 18 تشرين الأول 1921 أرسل الجنرال غورو إلى رئيس مجلس الوزراء ووزير

---

[1] كوثراني، وجيه، "مشاريع السيطرة والتجزئة في بلاد الشام من خلال أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (1915-1920)"، مقالة نشرت في كتاب **المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام (1516–1939)** (دمشق: جامعة دمشق–كلية الآداب، 1978)، ص551.

الخارجية الفرنسية رسالة يضمنها دراسة عن جبل الدروز صادرة عن قسم الاستخبارات في المفوضية العليا،[1] حيث يعتبر أن هذه الدراسة تضع الأساس الموقف الفرنسي المناسب من أحد مظاهر المسألة السورية الأقل شهرة، ألا وهو النزعة الإقليمية الذاتية لدى بعض التجمعات الاثنية والدينية. والدراسة تتناول الدروز من ناحية خصوصيتهم المذهبية وتنظيمهم الاجتماعي، وتنطلق من اختلافهم عن المسلمين لتقترح حلاً لهذا المظهر من مظاهر المسألة السورية، وهو تأمين الاستقلال الإداري السياسي لهذه الطائفة من جبل الدروز اثر انتفاضتهم الأولى عام 1920.

وكان الرئيس ميلران والجنرال غورو أوّل من أطلق مشاريع البحث في سورية ورسم هيكليّتها. ففي 2 كانون الأول 1921 قدم الكولونيل نيجر Nieger في جمعية الجغرافيا Société de Géographic محاضرة تحدث فيها عن العلويين والإسماعيلية والتنظيم الاداري للبلاد، وعن أسباب انتفاضة العلويين عام 1920 والوضع الاقتصادي في المنطقة. وكانت محاضرته قد ارتكزت إلى عدد من الوثائق جمعها عندما كان يشغل منصب حاكم بلاد العلويين واستفاد منها لدراسة جغرافية البلاد وسوسيولوجية وتاريخ العلويين وقد نشرت **مجلة العالم الإسلامي** هذه الوثائق[2].

ومن الدراسات الاستشراقية التي قام بها الخبراء الفرنسيون في إطار سعيهم لفهم التركيب الاجتماعي لسورية دراسة وضعها المهندس أتشارد Achard عضو بعثة Huvelin عام 1912، ورئيس مكتب الزراعة في المفوضية العليا فيما بعد عن القبائل البدوية في سورية وقد ارتكز أتشارد في دراسته للقبائل على المعلومات التي جمعها قسم الاستخبارات السياسية والعسكرية في المفوضية العليا، والتي ساعدت بدورها على اعتماد صيغ معينة في التعامل الفرنسي مع القبائل البدوية. [3]

---

[1] أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية: Serie E. Levant, vol. 127 ، 18 تشرين الأول 1921 نقلاً عن وجيه الكوثراني، المصدر السابق، ص564.

[2] كوثراني، وجيه، ص566.

[3] المصدر السابق، ص567-568 وثمة مختصر لبعض نقاط هذه الدراسة في:
Supplément ل l'Asie Française: No. Juin 1922 (Bibliographie), p. 98.

و نقرأ حول هذا المخطط تقريراً مهمًّا لأحد الدبلوماسيين الفرنسيين يطرح جملة من الأفكار الخطيرة حول منهج تجزئة سورية، يقول صاحب هذا التقرير: "لقد استبعدت إمكانية أن تحكم أسرة عربية في سورية موحدة، ويبدو أن لا خطر من أن نترك لمختلف التجمعات الأقوامية الإثنية أن تشكل بنفسها أو بمساعدتنا إطار استقلالها الوطنية."[1]

وتقدم لنا البرقيات المتبادلة بين الرئيس ميلران Millerand والجنرال گورو صورة واضحة عن تجزئة سورية من زاوية المصالح الطائفية للانتداب الفرنسي. ففي 16 آب 1920 أرسل الرئيس ميلران إلى المفوض السامي الفرنسي برقيّة سرّية طويلة بعنوان: "مخطط لتنظيم الانتداب الفرنسي في سورية." يقول: "يمكن أن نتصور منذ الآن ثماني مجموعات مستقلة هي من الشمال إلى الجنوب: سنجق الإسكندرون، مستلحقة حلب، مجموعة النصيرية، مستلحقة حمص، مستلحقة طرابلس، مستلحقة دمشق، وأخيراً حوران وتتضمن هذه الأخيرة مجموعتين: الدروز والمسلمين". ويرى ميلران أن تنظيم هذه المجموعات يختلف باختلاف أوجه عديدة "ناتجة بالنسبة للبعض عن الموقع الجغرافي وبالنسبة للبعض الآخر عن تمركز المصالح وبالنسبة لآخرين عن كونهم تجمع ديني متماسك." ويستعرض ميلران بشيء من التفصيل الخطوط العامة لتنظيم هذه المجموعات فيقول بالنسبة لسنجق الإسكندرون: "ينقسم سكانه على أساس الدين والتابعية القومية بحيث نجد أتراكاً وأكراداً وجركساً وعرباً علويين و15 ألف أرمني أيضاً. لذلك ننظم فيه – كما هو للبنان – هيئة تمثل مختلف المجموعات الطائفية." وبالنسبة للعلويين: "المقيمين في المنطقة الساحلية الجبلية والذين يتكلمون جميعاُ اللغة العربية، فيشكلون جماعة دينية مرتبطة نظرياً بالإسلام، لكنها في الواقع منفصلة عنه تماماً ويجب ألا تدمج بالمسلمين."[2] وقد كان ميلران يهدف من ذلك إلى التفرقة

---

[1] المصدر السابق، ص572.

[2] المصدر السابق، ص580 نقلا عن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، Serie E-Levant, Syri-Liban Vol. 125, p. 193-233

الدينيّة، إذ كانت منطقة العلويّين جزءاً من المناطق السنّيّة، إلاّ أنـــّها أعلنت إستقلالها سنة 1922م إثر نشاطات الفرنسيّين، واعتُرف رسميّاً بحكومة العلويّين، واشتهرت المنطقة باسم "بلاد العلويّين" *(Territoire des Alaouites)*، واشتملت هذه المنطقة على مدينة اللاّذقيّة وأطرافها، أي: صهيون وجبلة وبانياس وصافيتا، وطرابلس، القديمة وناحية طرطوس وأطراف مصياف.

ومن جملة هذه الوثائق ما كتبه هنري لامنس Henry Lamensالفرنسي عن سورية ومناطق العلويين، وقد زار المستشرق الفرنسي،[1] منطقة العلويين مراراً أثناء رحلاته من 1899 إلى 1904، وكتب مقالاً عن "دولة العلويين" في مجلة المشرق، وهو يمدح الاستعمار الفرنسي ويشيد بإنجازاته الاقتصادية والزراعية والعمرانية في منطقة العلويين ومن ناحية أخرى يهاجم الحكم التركي ويصفه بأنه كان يسعى لتذليل العلويين وعقابهم، كما يهاجم الإسماعيلين ويصفهم الحشاشين وهو الإسم الذي كان الصليبيون يطلقونه على رجال الإسماعيليين، فيقول: "أصبحت تلك الدولة (العلويين) بفضل الحكم الفرنسي أرض اختبار تستفيد منه بلدان الشرق الأدنى عامة ولبناننا خاصّة،" ثم يمجد حكومة الاحتلال بهذه العبارات: "كلّ ذلك يبشر بخير مستقبل لتلك الدولة (العلوية)، ويشهد بفضل الحكومة (الفرنسية) التي تديرها، فتخلصها من العقبات المتعددة التي يوّفرها في غيرها من البلاد الآهلين بالسياسة، وتسير بها في سبيل العمل الجدّي المنتج إلى محجّة الرفاهية والهناء، فيا لسعادة العلويين إذ لا مجلس لهم ولا نواب يعرقلون الأمور!"[2]

فنحن نرى بوضوح أنه يدافع عن الاحتلال الفرنسي في المناطق السورية ويمدح عملية تجزئة سورية إلى دويلات مستقلة تحت الانتداب الفرنسي، ويجدر بالذكر أن

---

[1] ولد هنري لامنس عام 1862 في بلجيكا وفي الخامسة عشرة من عمره غادر بلجيكا لينضم إلى الرهبنة اليسوعية في بيروت، وأقام في تلك المدينة التي غدت موطنه الثاني ما تبقى له من عمر.

[2] لامنس، هنري، "دولة العلويين"، في مجلة **المشرق**، السنة السابعة والعشرون (بيروت: 1929)، ص663-670.

أعمال لامنس وكتاباته وآراءه تمثل الأعماق الحقيقية والأهداف البعيدة المدى لحركة الاستشراق، كما تمثل التطورات المرحلية التي كانت تدخل على هذه الحركة لتساير أهداف الاستعمار الغربي في هذه المرحلة أو تلك من مراحله وفي ظروف تقتضي طبيعة التحرك الاستعماري فيه بث مفاهيم من نوعية محددة لتساير الأهداف المرحلية للحركة الاستعمارية.

وبعد أن وقع لبنان وسورية في ظل الانتداب الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى، فاتخذ من لامنس رأسًا من رؤوس صنائعه وداعية لسياسته الاستعمارية في الشرق قاطبة، حتى أنه كتب بناء على طلب المفوض السامى الفرنسى الجنرال غورو كتابًا بعنوان **سورية** *(Syrie) La* ضمن دعاية سافرة لأهداف وآراء الاستعمار الفرنسي من خلال عرضه لمادة علمية المظهر والأسلوب. وهو يقول في مقالته: "العلائق الأولى بين فرنسة وسورية": "ليست العلائق بين فرنسة وسورية حديثة العهد، فإنها ترتقي إلى قرون النصرانية الأولى، فكأنّ البلادين (هكذا) منذ تعارفا عشق أهلهما بعضهما بعضاً فتآخيا وتصافحا، والبحر بينهما وصلة لايكترثون لأهوائه وويلاته"، وفي آخر المقال يستنتج أن المسلمين هم الذين وضعوا حواجز بين سورية وفرنسة، فيقول: "على أن ظهور العرب في الشام وفتحهم لمدنها لم يلبث أن أخمد تلك الحركة المتبادلة بين فرنسة وسورية لكثرة ما كانوا يجدونه في سبيلهم من العوائق ذهاباً وإياباً، وقد وضع العرب تلك الحواجز بين نصارى سورية وفرنسة خوفاً من نفوذ الأجانب في بلادهم، فبقي حبّ السوريين لفرنسة مكتوماً في سويداء قلوبهم كالنار تحت الرماد تبدوا متأججة إذا وافقتها الأحوال".[1] ثمّ يهاجم أهل الحجاز فيقول: "وإذا انتقلنا الآن إلى عرب سورية فتساءلنا كيف كانوا بدورهم يعتبرون بدو الحجاز، فنرى أنهم كانوا يترفعون كل الترفع على سكان جزيرة العرب ويبذلون جهدهم في أن يبعدوا عن بلادهم السورية

[1] لامنس، هنري، "العلائق الأولى بين فرنسة وسورية"، في مجلة **المشرق**، السنة التاسعة عشرة (بيروت: 1921)، ص49، 55.

قمل الحجاز وحرشة الضباب وأكلة اليرابيع،" ثم يقول: "إن العرب جاؤوا في النصف الأول من القرن السابع، فغزوا سورية؛ لأن البيزنطيين أهملوا حراسة حدودها، وإنهم ظلوا مقيمين فيها، لأن البيزنطيين لم يقووا بعد ذلك على طردهم منها."[1] فنرى أنه يبغض الإسلام والمسلمين، ويبرز حبه لسورية البيزنطية المسيحية. وقد منحته السلطة الفرنسية ثقة مطلقة، فغدا من ذوي النفوذ القويّ في لبنان، وكان يتدخل بشكل سافر في السياسة اللبنانية من طريق الثقة المطلقة التي كانت توليه إيّاها السلطة الفرنسية.[2]

ويمكن أن نطلع على أهداف الحكومة الفرنسيّة خلال الانتداب الفرنسي من ثنايا الرسائل المتبادلة بين الفرنسيين أنفسهم في سنة 1911م، ومن جملتها رسالة أرسلها صمويل زويمر إلى ا.ل. شاتليه رئيس تحرير مجلة "العالم الإسلامي" الفرنسيّة في 2 أغسطس سنة 1911م، وفيها يقول: "و لكنّنا نعود فنقول: إنّه مهما اختلفت الآراء في نتائج أعمال المبشّرين من حيث الشطر الثاني من خطّتهم فإنّ نزع الاعتقادات الإسلاميّة ملازم دائماً للجهود التي تبذل في سبيل التربية النصرانيّة. والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهّد السبل لأعمال المدنيّة الأوروبيّة، إذ من المحقّق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسيّة وسوف لا يمضي غير زمن قصير حتّى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبيّة."[3]

ويصف هاشم عثمان محاولات الضباط الفرنسيين في جمع الوثائق العلويّة ومساعدة المستشرقين في بحوثهم الاستشراقيّة بقوله: "جاء أحد اولئك الضباط إلى احدى القرى ذات يوم، يريد الحصول على بعض ما يودّه من مواد يضمّها إلى مؤلف يعده في تاريخ العلويين وديانتهم، وكان ثمة البطل العربي الكبير الشيخ صالح العلي آنئذ، فلما سأل

---

1 لامنس، هنري، "لماذا افتتح العرب سورية"، في مجلة **المشرق**، السنة الثلاثون (بيروت: 1932)، ص178-184.

2 عاقل، نبيه، "المستشرقون وبعض قضايا التاريخ" في **دراسات تاريخية** (جامعة دمشق:1403هـ/1982م)، العدد 9-10، ص186-189.

3 شاتليه، ا.ل.، **الغارة على العالم الإسلامي**، تعريب محب الدين الخطيب ومساعد الباقي (جدة: الدار السعودية، 1387هـ)، ص9-10.

الرجل أسئلة مدّ الشيخ يده بكتاب الله وهو يقول: إذا أردت تاريخ العلويين فهذا تاريخهم، وإذا شئت دينهم فهذا دينهم، عبثًا جادل الرجل وعبثًا داور وكابر."[1]

وأشار كومت ر. د. بيرون في كتابه "في طريق سوريا" الذي أصدره عام 1928م إبّان الاحتلال الفرنسي إلى هذه الطائفة أيضاً وإلى أهمية العمل على استغلالها. بعد ذلك كتب بيير ماي، متصرّف مدينة اللاّذقيّة (مركز العلويّين في سورية)، كتاباً بعنوان العلويّة (*L'Alaouite*) حول عقائد العلويّين وآدابهم وتقاليدهم المذهبيّة، وشيوخهم وأعرافهم القبليّة بناءً على مشاهداته الشخصية، وسعى فيه إلى استقطاب مشاعر العلويّين الموالين لفرنسا إليه بادّعائه أنّ الفرنسيّين ينادون بتحرير العلويّين من ظلم العثمانيّين وجورهم.[2]

و يقول يوسف الحكيم: "عندما عين الكولونيل نيجر حاكماً لمنطقة العلويين دعا إلى مترله القاضي الشرعي الشيخ نعمان العجا، واستحصل على إصدار وثيقة خطية يؤيد فيها استقلال العلويين عن السنيين في المذهب. وفي اليوم الثاني سافر الحاكم إلى بيروت حاملاً تلك الوثيقة الخطية وبسط أمام المفوض السامي وأركانه ما تفضل به القاضي الشرعي من معلومات، ثمّ عاد إلى اللاذقية حاملاً قرار المفوض السامي المتضمن اعتبار العلويين طائفة مستقلة تمام الاستقلال عن المسلمين السنيينن الأمر الذي يستدعي إقامة محاكم مذهبية خاصة بهم وكان منهم قوام مقام ومديرون في الأقضية والنواحي، يساعدهم ويشرف على أعمالهم مستشارون عسكريون فرنسيون."[3]

الاستشراق الفرنسي المعكوس

ومنذ عام 1940 حتى عام 1970م أوقف الفرنسيون أبحاثهم، وذلك لهزيمتهم أمام الحكومة المركزيّة في دمشق، وسقوط الحكم الذاتي للعلويّين باستثناء البحوث التي قام

---

[1] عثمان، هاشم، **العلويون بين الأسطورة والحقيقة**، ص130.

[2] May Pierre, *L'Alaoute: ses croyance, ses meours, les cheikhs, les lois de tribu et les chefs*) Beirut.(1931 :

[3] الحكيم، يوسف، **سورية والانتداب الفرنسي**، ص66.

بها ماسينيون بين عامي 1961 و1963م وكلود كاهن[1] Cahen Claude في عام 1970. وبعد ذلك كتب الدبلوماسي اللبناني نعمان عبد الله (اسمه المستعار ألاين نيمير Alain Neimer، الذي تخرّج من جامعة نانسي الفرنسيّة وكان نشطاً في مجال تويثق العلاقات الثقافيّة اللبنانيّة–الفرنسيّة) كتابه المعنون العلويون *Les Alawites* الذي أصدره عام 1987م في باريس مختصراً في 77 صفحة حول العلويّين، لكن مضمونه افتقد الدقة العلميّة والصرامة المنهجية.

و تجدر الإشارة إلى أنّ المؤلـــّفات التي ألفت من قبل الموارنة بأسماء مستعارة في العقود الاخيرة حول النصيريّة والدّروز في سوريّة ولبنان ليست ممّا يمكن الاعتماد عليه كثيراً؛ لأنّ الهدف من تأليفها كان إيجاد مزيد من التفرقة بين المسلمين.

وفي عام 1980م كتب ميشال سورا Michel Seurat (اسمه المستعار: جيرار ميشو Gérard Michaud) – الذي اختفى في 22 ماي 1985 في لبنان وقتل عام 1986 في أحداث لبنان– بحثاً حول المذاهب والفرق المختلفة في سورية ضمّنه موجزاً عن العلويّين،[2] ولكنه لم يكن من طراز الاستشراق الكلاسيكي الذي نقده إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق"، بل كان يتعاطف مع الحركات الإسلاميّة حتى قيل: إنّ مجموعة كبيرة من المستشرقين الفرنسيين – ومنهم ميشال سورا – خضعوا للاستشراق المعكوس في أواخر السبعينيات.[3]

---

[1] فكان من العائلة اليهوديّة، ولكنه لم يؤيد النظام الاسرائيلي، وكان عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي من سنة 1930 حتى 1960، وتخرّج باللغات الشرقيّة من السوربون ومدرسة اللغات الشرقيّة ومدرسة المعلمين العليا، وعيّن محاضرًا في مدرسة اللغات الشرقيّة في باريس 1938م وأستاذًا لتاريخ الإسلام في كليّة الآداب بجامعة ستراسبورغ 1945م وفي جامعة باريس، ويعدّ أول من طبّق النظريّات الاقتصاديّة الحديثة ونظريّات التأريخ الاجتماعي على موضوعات أبحاثه والمجتمعات الإسلاميّة.

[2] Seurat, Michel, *La Syrie d 'Aujourd'hui* ,edited by Andre Raymond (Paris: Editions de CNRS, 1980).

[3] أشقر، جلبير، "الاستشراق معكوسًا: تيارات ما بعد العام 1979في الدراسات الإسلامية الفرنسية"، ترجمة سماح إدريس، في جريدة **المناضل** (المغرب: الأربعاء 22 تشرين الأول– أكتوبر، 2008). وهذه المقالة مبنية على نص المحاضرة الرابعة في سلسلة المحاضرات السنوية التي تنظمها جامعة وورويك البريطانية تخليدًا لذكرى إدوارد سعيد، وقد ألقيت في العشرين من نونبر 2007. ونُشر النص الأصلي باللغة الإنجليزية في مجلة *Radical Philosophy* في عددها رقم 151 لشهري سبتمبر–أكتوبر 2008.

ويعتقد جلبير أشقر أنّ هذا النسق من الاستشراق المعكوس بدأ من فرنسا ليسيطر على قلب بلاد الاستشراق الكلاسيكي؛ لأن كثيراً من الفلاسفة الجدد الذين كانوا يساريين جذريين وماويين بشكل خاص في فرنسا انقلبوا على قناعاتهم السابقة وغدوا معادين للماركسيّة، وأظهروا حماساً لإيمانهم الجديد وتأثروا تأثراً مباشراً بالحركات الإسلاميّة، وأدّى ذلك بهم إلى رفض تسمية الأصوليّة (fundamentalism) الإنجليزية وإطلاقها على هذه الحركات، ذاتها وإلى رفض معادلها الفرنسي (intégrisme) بذريعة أنّ هاتين التسميتين تتعلقان بالمسيحيّة.

ولكن ألبرت حوراني يعتقد أنّ الاستشراق المعاكس ليس ظاهرة تتعلق بأحداث السبعينيات، كما يدّعي جلبير أشقر؛ لأن بعض المستشرقين الفرنسيين في القرن الثامن عشر كانوا يستخدمون سيرة النبي ﷺ ورسالته وسيلة غير مباشرة لانتقاد المسيحية، على الأقل في الشكل الذي جسدتها به الكنيسة، بحيث كانوا ينظرون إلى النبي محمد ﷺ على أنه يبشّر بدين أكثر عقلانية أو أقرب الإيمان الطبيعي الصرف من المسيحية.[1]

ويمكن أن نقول: في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أصبح باستطاعة المستشرقين الفرنسيين الذين اطلعوا على الإسلام أن يكون لهم نوعان من المواقف نحو الإسلام واصبح باستطاعتهم أن يروا الإسلام بوصفه عدوًّا ومنافساً للمسيحية، أو بوصفه أحد الأشكال التي اتبعها العقل والإحساس البشري في محاولتهما إدراك طبيعة الله والعالم وتحديد علاقة الإنسان بهما، ومن الطبيعي أن الموقف الأخير كان بمثابة قبول لكون المسلمين قد أدّوا دوراً مهمّاً في تاريخ العالم. ومن هذا التيّار الجديد للاستشراق – الاستشراق المعكوس – عالم الاجتماع السياسي أوليفييه كاريه Olivier Carré، الذي نشر عام 1983 كتاباً بالتعاون مع ميشال سورا يصف فيه "الإسلام السياسي" بأنّه يمثل الثقافة السياسيّة للعالم الإسلامي الذي يحاول أن يعبّر عن

---

[1] حوراني، ألبرت، **الإسلام في الفكر الأوروبي**، ص26.

نفسه أخيراً، وأنّ التقدميّة الحقيقيّة الوحيدة هي الخيار الإسلامي.[1] ولا يوجد حالياً من يكون خبيراً في الشؤون الشرق الأوسطية من جميع الجوانب الثقافية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والاستراتيجية، ويشبه أن يكون الاستشراق حالياً مثل صناعة أجزاء الروبوت robot في معامل مختلفة لا رابط يصل بينها.

ولكي لا نخرجَ عن حدّ الاعتدال ولا ننسى ما قدّمه بعض المستشرقين الفرنسيين من خدمات جليّة للتراث الإسلامي القيّم، نختم هذه المقالة بما قاله الدكتور جرنييه (و هو فرنسيّ وكان عضواً في مجلس النوّاب الفرنسي) حين سئل عن سبب إسلامه: "إنني تتبعت كلّ الآيات القرآنيّة التي لها ارتباط بالعلوم الطبيّة والصحيّة والطبيعيّة، والتي درستها من صغري وأعلمها جيّداً، فوجدت هذه الآيات منطبقة كلّ الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت لأنني تيقنت أنّ محمّداً أتى بالحقّ الصراح من قبل ألف سنة من دون أن يكون له معلّم أو مدرّس من البشر، ولو أنّ كلّ صاحب فنّ من الفنون أو علم من العلوم قارن كلّ الآيات القرآنيّة المرتبطة بما تعلّم جيّداً كما قارنتُ أيضاً لأسلم بلا شكّ إن كان عاقلاً خالياً من الأمراض."[2]

خاتمة

نستطيع أن نستنتج مما ذكرنا بأنّه خلال جميع مراحل العمليات الاستعماريّة لعب المستشرقون دوراً أساسياً في التمهيد للتوسع الاستعماري ولتوطيد سيطرة الغرب على الشرق، وسبقت فرنسا سائر الدول الأوروبيّة في القيام بهمّة الاستشراق. ولّما كان

---

[1] Carré, Olivier, Michaud, Gérard (Michel Seurat). *Les Frères musulmans. Egypte et Syrie (1928-1982)* (paris: Gaullimard/Julliard, 1983), p. 138.

انظر مقالة جلبير الأشقر، "الاستشراق معكوساً تيارات ما بعد العام 1979 في الدراسات الإسلامية الفرنسية" جريدة **المناضل** (المغرب: الأربعاء 22 تشرين الأول- أكتوبر، 2008)؛ العظم، صادق جلال، **الاستشراق والاستشراق معكوسا** (بيروت: دار الحداثة،1981).

[2] ظفر الله خان، محمد، **الإسلام والإنسان المعاصر**، ترجمة محمد جلال شرف (بيروت: دار النهضة العربية، 1981م)، ص26، 157؛ بهاء الدين حسين أحمد، محمد، **حقيقة الاستشراق وموقفه من الإسلام**، ص101-102.

السياسيون الفرنسيون في أوائل القرن العشرين بصدد تجزئة سورية إلى دويلات مستقلة، فقد احتاج مشروعهم هذا إلى دراسة النسيج الديني لهذه المنطقة وإلى نشر كلّ ما من شأنه إثارة النزعات العرقية أو الطائفية بين المسلمين وساعدهم المستشرقون في تحقيق أهدافهم لتجزئة البلاد الإسلامية إلى دويلات مستقلة يمكن أن تسيطر عليها فرنسا بطريقة سهلة. وقد بدأت الدراسات الفرنسيّة من التقارير العامّة حول المناطق المختلفة في سورية ووصلت بالتدريج إلى عقائد العلويّة والدروز والإسماعيلية وكياناتهم الدينيّة، وطبيعة الارتباط مع الشيوخ والخلافات القديمة بين القبائل.

ومن خلال دراستنا لوثائق الخارجية الفرنسية توقفنا عند بعض الوثائق التي تبرز هذه الجوانب المغمورة وأن انتصار الاستعمار الفرنسي في مشاريع سيطرته وتجزئته لبلاد الشام لم يكن مجرد انتصار آلة عسكرية، بل إن ثمة إطارًا علميًّا للتحرك الفرنسي الدبلوماسي والعسكري من خلال وثائق هي أشبه بتقارير علمية ومعرفة عيانية هو ما قام به المستشرقون من دراسات. وهذه الحقيقة تدلنا على أن الاستشراق الفرنسي لعب دوراً مهماً للحصول على هذه المعرفة، وقد ارتكزت المشاريع الإدارية السياسية التي حملتها المراسلات إلى حدّ كبير على التقارير والدراسات السوسيولوجية الوصية التي أعدّها المستشرقون الفرنسيون. والاستشراق المعكوس بدأ من فرنسا ليسيطر على قلب بلاد الاستشراق الكلاسيكي؛ لأن كثيراً من الفلاسفة الجدد الذين كانوا يساريين جذريين وماويين بشكل خاص في فرنسا انقلبوا على قناعاتهم السابقة، وغدوا معادين للماركسيّة، وأظهروا حماساً لإيمانهم الجديد وتأثروا تأثراً مباشراً بالحركات الإسلاميّة.

وبقيت كلمة أخيرة في هذا المقال وهي ترغيب طلاب العلوم الإسلامية في إحصاء أغاليط وأضاليل المستشرقين وتعقب الكتب والمقالات والمحاضرات التي يكتبها ويصدرها المستشرقون والرد عليها بالأدلة المتقنة وتحصين جامعاتنا الإسلامية من تسرّب الآراء المستشرقين الفاسدة في مجتمعنا الإسلامي. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (الصف: 8).

References: المراجع

Ḥasan, Najāh Qaṣṣāb, *Ṣāniʿū al-Jalāʾ fī Sūriyyah* (Beirut: Sharikat al-Maṭbūʿāt, 1st edition, 1999).

Al-Ḥakim, Yūsuf, *Sūriyyah wa al-ʿAhd al-Fayṣalī* (Beirut: Dār al-Nahar li al-Nash, 1986).

Al-Ḥākim, Yūsuf, *Sūriyyah wa al-Intidāb al-Faransī* (Beirut: Dār al-Nahār li al-Nashr, 1991).

Al-Amīn, Ḥasan, *Ghārat ʿalā Bilād al-Islām* (Damascus: Dār Qutaybah, 1421/2000).

Al-Aʿẓam, Ṣādiq Jalāl, *al-Istishrāq wa al-Istishrāq Maʿkūsan* (Beirut: Dār al-Hadāthah, 1981).

Al-Muʿallim, Walīd, *Sūriyā 1918-1958: al-Taḥaddī wa al-Muwājahah* (Damascus: Maṭbaʿah ʿIkrimah, 1985).

Al-ʿĀnī, ʿAbd al-Qahhār Dāwūd ʿAbd Allāh, *al-Istishrāq wa al-Dirāsāt al-Islāmiyyah* (Amman: Dār al-Furqān, 1st edition, 1421/2001).

Al-Sharqāwī, Muḥammad ʿAbdullah, *Fī al-Fikr al-Islāmī al-Muʿāṣir: al-Istishrāq Dirāsah Taḥlīliyyah Taqwīmiyyah* (Cairo: Cairo University-Kulliyat Dār al-ʿUlūm, no date).

Al-Zayyāt, Aḥmad Ḥasan, *Tārīkh al-Adab al-ʿArabī* (Cairo: Dār Nahḍah Miṣr, 24th edition, no date).

Arberry, J. A. *British Orientalists* (William Collins of London, 1943).

Ashqar, Jalbīr, "al-Istishrāq Maʿkūsan: Tayyārāt ma baʿda al-ʿĀm 1979 fī al-Dirāsāt al-Islāmiyyah al-Faransiyyah", translation: Samāḥ Idrīs, *al-Munaḍil,* Morocco, Wednesday, 22 October 2008.

Brockelmann, Karl, *Tārīkh al-Shuʿūb al-Islāmiyyah*, translation: Nabīh Amīn Fāris and Munir Baalbaki (Beirut: Dār al-Ilm li al-Malayin, 11th edition, 1988).

Carré, Olivier, Michaud, Gérard (Michel Seurat). *Les Frères musulmans. Egypte et Syrie (1928-1982)* (parís: Gaullimard/Julliard, 1983).

Catafago, *Journal Asiatique*, IV, t, XI, p. 149, ser, VII, I. VIII. P. 523;

Chateler, A. Le, *al-Ghārah ʿalā al-ʿĀlam al-Islāmī,* tralslation: Muḥib al-Dīn al-Khaṭīb and Musāʿid ʿAbd al-Bāqī (Jeddah: al-Dār al-Suʿūdiyyah, 1387).

Durgham, Aḥmad, "Baʿḍu Malāmiḥ al-Ittijāhāt al-Raʾīsah fī al-Istishrāq", *Majallat Dirāsāt Tārikhiyyah* (Damascus, issue 17-18, 1984).

Hawrānī, Albert, *al-Islām fī al-Fikr al-Ūrūbī* (Beirut: Muassasat Nawfal, 1994).

J. Waardenburg, *L'Islam dans le miroir de l'Occident* (Paris, 1960).

Karīm, Musṭafā, "al-Munāfasah al-Imbarāliyyah al-Faransiyyah al-Inkilīziyyah wa al-Iḥtilāl al-Faransī li Sūriyyah wa Lubnān Muqtabas ʿan al-Maṣādir al-Faransiyyah", paper presented on al-Mu'tamar al-Dawlī al-Thānī li Tārīkh Bilād al-Shām 1516-1916 (Damascus: Damascus University – Faculty of Literatures, 1978).

Kawtharānī, Wajih, "Mashāriʿ al-Sayṭarah wa al-Tajzi'ah fī Bilād al-Shām min Khilāl Arshīf Wizārat al-Khārijiyyah al-Faransiyyah (1915-1920), paper presented on al-Mu'tamar al-Dawlī al-Thānī li Tārīkh Bilād al-Shām 1516-1916 (Damascus: Damascus University – Faculty of Literatures, 1978).

Kawtharānī, WajĪh, *al-Sulṭah wa al-Mujtamaʿ wa al-ʿAmal al-Siyāsī* (Beirut: Markaz Dirāsāt al-Waḥdah al-ʿArabiyyah, 1988).

Khayr al-Dīn, al-Ziraklī, *al-Aʿlām* (Dar al-Ilm li al-Malayin, 9th edition, 1990).

Lamens, Henry, "al-ʿAlā'iq al-ʿŪlā bayna Faransah wa Sūriyyah", *Majallat al-Sharq*, Beirut, year 19, 1921.

Lamens, Henry, "Dawlat al-ʿAlawiyyīn", *Majallat al-Mashriq*, Beirut, year 27, 1929.

Lamens, Henry, "Limādhā Iftataḥa al-ʿArab Sūriyyah", *Majallat al-Mashriq,* Beirut, year 30, 1932.

Longrigg, Stephen Hemsley, *Syria and Lebanon under French Mandate* (Beirut: Librairie du Liban, 1968).

M. Clement Huart, *La poesie Religieuse Des Nosairis* (Paris: Imprimerie nationale, MCCCLXXX) and printed in: *Journal Asiatique*, ser, VII, T., XIV.

M. DU Caurroy, "Législation musulmane sunnite, rite hanéfi", *JA*, 4e série (17) 1851, (19) 1852, 5e série (1) et (2) 1853.

Manāhij al-Mustashriqīn fī al-Dirāsāt al-ʿArabiyyah al-Islāmiyyah (Riyadh: al-Munaẓẓamah al-ʿArabiyyah li al-Tarbiyah wa al-Thaqāfah li al-ʿUlūm wa Maktab al-Duwal al-ʿArabī li Duwal al-Khalīj, 1405/1985).

May Pierre, *L'Alaoute: ses croyance, ses meours, les cheikhs, les lois de tribu et les chefs* (Beirut: 1931).

Muḥammad, Bahā'uddīn Husayn, *Haqīqat al-Istishrāq wa Mawqifhū min al-Islām mundhu Ẓuhūrihī ilā Nihāyat al-Alfiyah al-Thāniyyah* (Kuala Lumpur: Research Centre – International Islamic University Malaysia, 2003).

ʿAqīl, Nabīh, "al-Mustashriqūn wa Baʿḍ Qaḍāya al-Tārikh", *Majallat Dirāsāt Tārīkhiyyah,* issue 9-10, Damascus University, 1403/1982.

ʿUlyān, Muḥammad ʿAbd al-Fattāh, *Aḍwā' ʿalā al-Istishrāq* (Kuwait: Dār al-Buhuth al-Ilmiyyah, 1400/1980).

Philip S. Khouri, *Syria and the French Mandate* (Princeton: Princeton University, 1987).

René Pottier, *Le Cardinal Lavigerie, Apôtre et civilisateur* (Paris: Publications techniques et artistiques, 1947).

Rodinson, Maxime, *al-Islām wa al-Ra'smāliyyah*, translation: Nazīh Ḥakīm (Beirut: Dār al-Ṭalīʿah, 1st edition, 1968).

Rodinson, Maxime, *Turāth al-Islām,* translation: Muḥammad Zuhayr al-SanhūrĪ (Cairo: Silsilat ʿAlam al-Maʿrifah, 1st edition, no date).

Said, Edward, *al-Istishrāq: al-Maʿrifah – al-Sulṭah – al-Inshā'*, translation: Kamāl Abū Dīb (Beirut: Muassasat al-Abhāth al-ʿArabiyyah, 1st edition, 1981).

Saʿīd, Khayrullāh Rushk, "al-Istishrāq", *Majallat Dirāsāt ʿArabiyyah*, Beirut, no 9, year 26, July 1990.

Seurat, Michel, *La Syrie d' Aujourd'hui*, edited by Andre Raymond (Paris: Editions de CNRS, 1980).

Shaykhū, Lois, "al-Adab al-ʿArabiyyah fī al-Rubʿ al-Awwal min al-Qarn al-ʿIshrīn", *Majallat al-Mashriq,* Beirut, year 19, 1921.

Uthmān, Hāshim, *al-ʿAlawiyyūn bayna al-Usṭūrah wa al-Ḥaqīqah* (Beirut: Muassasat al-Aʿlamī li al-Maṭbūʿāt, 1405/1985).

Zafrullah Khān, Muḥammad, *al-Islām wa al-Insān al-Muʿāasir,* translation: Muḥammad Jalāl Sharaf (Beirut: Dār al-Nahḍah al-ʿArabiyyah, 1981).

Zaqzūq, Maḥmud Ḥamdī, *al-Istishrāq wa al-Khalfiyyah al-Fikriyyah li al-Ṣirāʿ al-Ḥaḍārī* (Qatar: Ri'āsat al-Maḥākim al-Sharʿiyyah, 1st edition, 1404).

Ziaee, Ali Akbar, *Fihris Maṣādir al-Firaq al-Islāmiyyah* (Beirut: Dār al-Rawḍah, 1990).